المعتزلة

يجرى على ألسنة الناس كثيراً ذكر المعتزلة وفى كتب العقائد ومجالس العلم . ويعتقد السواد الأعظم ممن يعرف المعتزلة أنهم أساءوا الاعتقاد ومن ثمت يتهمون من كثر بحثه فى العقائد بالاعتزال ويجابهونه بكلمة (يا معتزل) فى معرض الاستنكار والقذف .

من أجل هذا تاقت نفسى إلى تصفح أسفار التاريخ منقباً عن المعتزلة وأطوار حياتهم ومنشأ عقائدهم وبيان فرقهم وسوى ذلك مما يهم المولعين بالحقائق الكافلين بمعرفة أهم طائفة من طوائف المسلمين .

لما انبثق فجر الإسلام وأضاء العالم بنوره الوضاح كان العراق موطنا لجماعات متباينة النزعات مختلفة المذاهب متغايرة الديانات ، فبعضهم يحفظ عقائد بالية خلقها سكان العراق الأقدمون من الكلدانيين ، وبعضهم يحمل فى نفسه معلومات فارسية ، وبعضهم يدين بالنصرانية على علاتها ، وبعضهم يعتنق اليهودية على ما فيها — وكان الناس يدخلون فى دين الإسلام أفواجاً ، فبعض من ذكرنا دخل منافقاً يبطن الكفر ويظهر الإسلام خوفا ورهبة من قعقعة السيوف ، والبعض دخل مصطبغا بمعلومات قديمة فى رأسه فلم يلبث أن اختلط عنده الحق مع الباطل ولم يتميز الخبيث من الطيب . والبعض أخذ الإسلام من منهله العذب وانقاد لمبادئه من غير تحوير ولا تغيير . لذلك لما قويت نار الفتن فى عهد على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان واحتدم النزاع وعلا لهب الشقاق انبعثت فى العراق الأهواء القديمة من منامها تندس فى صفوف الطلائع السياسية حتى ظهر فى أثناء ذلك الخوارج والشيعة والقدرية والجبرية وفى غضون هذا المضطرب من الآراء قامت المعتزلة .

وللعلماء آراء عدة فى وقت ظهور المعتزلة نرأى يقول إنها ابتدأت لما تنازل الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية حسما للنزاع ، فأن جماعة من أتباع الحسن تركوا السياسة وانصرفوا إلى العقائد يفحصونها مجدين مثابرين ، وفى ذلك يقول أبو الحسن الطرائفى فى كتابه رد أهل الأهواء والبدع (وهم سموا أنفسهم معتزلة وذلك عند ما بايع الحسن بن على عليه السلام معاوية وسلم إليه الأمر ، انفرد جماعة من أصحاب على فلزموا مساجدهم وقالوا نشتغل بالعبادة والعلم)

ورأى الجمهور على أن واصل بن عطاء هو رأس المعتزلة وكان تلميذاً نابها للحسن البصرى الذى كان يعقد حلقات لها شأنها فى تحليل العقائد وتعليمها للناس ، فلما ثارت تلك المسألة التى كانت شاغلة الأفكار حينئذ وهى مسألة مرتكب الكبيرة هل هو كافر محض أو مؤمن

محض ، وشب واصل مخالفاً أستاذه فى رأيه فقال : (أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن بأطلاق ولا كافر بأطلاق بل هو بين بين) ثم اعتزل مجلس الحسن من وقت ذلك واتخذ له مجلساً آخر .

والظاهر أن المعتزلة أخذت هذه التسمية من اعتزال رئيسهم مجلس الحسن البصرى كما أسلفنا ، ويقول بعض المستشرقين الذين كتبوا عن المعتزلة وعنوا بدراستهم إنهم كانوا متقشفين زاهدين اعتزلوا زخارف الحياة وملاذها وفى ذلك بعد عن الحقيقة التى قررها التاريخ فأنه ليس كل المعتزلين كما نعتهم المستشرق بل منهم المتقون والأبرار ومنهم العاصون والفجار . ويقول الأستاذ أحمد أمين فى مؤلفه فجر الأسلام ما خلاصته : (ولنا فرض آخر فى تسميتهم المعتزلة لفتنا إليه ما قرأناه فى خطط المقريزى من أن بين الفرق اليهودية التى كانت منتشرة فى ذلك العصر وقبله طائفة يقال لها الغروشيم وقال إن معناها المعتزلة ، وذكر بعضهم عن هذه الفرقة أنها كانت تتكلم فى القدر وتقول ليس كل الأفعال خلقها الله فلا يبعد أن يكون هذا اللفظ قد أطلقه قوم على المعتزلة لما رأوا بينهم وبين الفرقة الغروشيمية من شبه) .

* * *

وللمعتزلة أصول خمسة ، لا يسمى الواحد معتزلياً ولا يستحق هذا اللقب إلا إذا جمع بين هذه الأصول وهى (١) التوحيد (٢) العدل (٣) المنزلة بين المنزلتين (٤) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (٥) الوعد والوعيد ـ ذكر ذلك أبو الحسين الخياط فى كتابه الانتصار ولنتكلم على كل فنقول :

التوحيد هو أهم نحلتهم ويعتقدون كما قال الأشعرى عنهم فى كتابه مقالات الأسلاميين (والفضل ما اعترفت به الأعداء والخصوم) إن الله واحد ليس كمثله شىء وكل ما خطر بالبال فهو بخلافه وقد بنوا على هذا الأصل استحالة رؤية الله يوم القيامة لاقتضائها الجسمية والجهة

وأما العدل فقد فسره المسعودى فى مروج الذهب فقال معناه عندهم أن الله لا يحب الفساد ولا يخلق أفعال العباد وانه لم يأمر إلا بما أراد ولم ينه إلا عما كره . لم يكلف ما لا طاقة به ولو شاء لجبر الخلق ولكان قادرا . ولكنه لم يفعل إذ فى ذلك رفع المحنة وإزالة البلوى ، وقد ردوا بهذا الأصل على الجبهية الذين قالوا إن العبد فى فعله غير مختار

وأما الوعد والوعيد فمعناه أن الله يجازى على الأحسان إحسانا وعلى الأساءة إساءة لا يغفر لمرتكب الكبيرة ما لم يتب .

وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين فمعناه أن صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمنا لأن الإيمان اسم مدح يتطلب خصال الخير ، ولا يسمى فاسقا لأن الفسق اسم ذم يتطلب خصال الشر وإذن ، فلا هو فاسق بأطلاق ، ولا مؤمن بأطلاق . وهو فى الآخرة ذو دركة فوق دركة الكفار .

وأما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد قرروا وجوبهما على المسلمين إذاعة للدين لا تكلف بذلك طائفة مخصوصة بل كل بما يستطيع ، فذوو البيان والحجة بأدلتهم ، وأهل الشجاعة والقوة بقوتهم .

* * *

كان المعتزلة يثقون بالبرهان العقلي ثقة تامة لا يحدها إلا احترامهم للشرع ، ومعنى هذا أن كل موضوع عندهم يعرضونه على العقل فأن حكم بقبوله اعتمدوه ، وإن حكم برفضه رفضوه : لا يرون لقضية صحة وأحقية إلا إذا طابقت مقتضى العقل ، وقد سرى إليهم ذلك النوع من البحث من إقامتهم بجهات فارس والعراق فأنها كانت ذات مدنيات ماضية وأبحاث عتيدة تركت صدى فى السلالات والأحفاد . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فأن المعتزلة لم يعنوا من أول الأمر بدرس الآثار النبوية والالمام بها : فلم تتوفر عندهم الأدلة العقلية كثيرا . يضاف إلى ذلك أن الخارجين على الاسلام لم يتصد للرد عليهم ومناقشتهم إلا المعتزلة ويدعى أن الخارجين لا يمكن إفحامهم إلا بالعقل وبراهينه . من أجل ذلك حرص المعتزلة على البحث العقلى والعمل بقوانينه ، ولقد خلف اعتمادهم على العقل فى كل شىء الأثر المعروف عنهم وهو الحكم بقبح الأشياء وحسنها عقلا ، وتوضيح هذا الأثر أن الحسن ما حسنه العقل ، والقبيح ما قبحه العقل ؛ والشرع جاء مؤكدا لحكم العقل فحسب .

(قنا)

وحى الشقاء

بينى وبينك ياشقاء فى كل آونة بلاء
إخترت قلبي مرتعا وجعلت أضلاعى خباء
هلا رثيت لحالتى ورحمت ضعفى والبكاء !
إن كنت عازما البقاء بساحتى أين العزاء ؟

(الفاروقية) شاعر مجهول